المُسارة التّقليديّة، منهجيّة سليمة في سبيل تعليم العزف على الآلات الموسيقيّة العربيّة في المعاهد العصريّة

د. هيّاف ياسين[1](لبنان)

تنتشر المدارس\المعاهد المهتمّة بتعليم الآلات الموسيقيّة، لا سيّما العربيّة منها، في أرجاء كبيرة وكثيرة في الوطن العربيّ ككلّ، وخصوصًا في لبنان، إذ يشهد الأخير نموًّا في أعداد تلك المؤسّسات لا سيّما الخاصّة منها.

وتنكبّ هذه المدارس الموسيقيّة عمومًا على تعليم عدّة أنماط من الموسيقى، منها ما هو محلّي (تراث موسيقيّ شعبيّ)، ومنها ما إقليميّ عربيّ (موسيقى النّهضة العربيّة ١٧٩٨-١٩٣٩) ومنها ما هو من ثقافات متنوّعة من العالم كالموسيقى الطونالّية الكلاسيكيّة الأوروبيّة، وموسيقى الجاز وحتّى موسيقات الرّائجة الخفيفة المتداولة...

وتستخدم هذه المدارس المنهجيّات المعتمدة عالميًّا بشكل مباشر، وتطبّقها في أغلب الأحيان كما وردتها، ولا تأخذ عادة في عين الاعتبار بأيّ متغيّر ثقافيّ أو جغرافيّ أو اجتماعيّ بين بيئة أو أخرى. ومن دون الدّخول في عمليّة تقييم نتاجها على المسطّح التّربويّ، الّذي يتحمّل جدالًا عن جدوى وأو نجاعة ذلك فيما

[1] هياف ياسين: دكتور في الموسيقى وعلم الموسيقى، رئيس قسم الموسيقى العربيّة في كليّة الموسيقى وعلم الموسيقى في الجامعة الأنطونيّة\لبنان، مدير عام "بيت الموسيقى" في النّجدة الشّعبيّة اللّبنانيّة، موسيقيّ، ملحن، عازف على السّنطور، فائز بالمسابقة الدّوليّة في تلحين الموشّح (أخفي الهوى – شعر عمر بن الفارض) الّتي نظّمها المجمع العربيّ للموسيقى سنة ٢٠١٩، مبتكر آلة السّنطور في شكليه التّربويّ والمشرقيّ المحترف.

يخصّ الأنماط الموسيقيّة المستوردة، إلّا أنّ النّقاش يحتدّ ويحتدم على كيفيّة وجدوى تطبيق أيّ منهجيّة لتعليم الموسيقى في الأطر المحليّة والإقليميّة العربيّة.

تقدّم هذه الورقة، نموذجًا عن مثالٍ حيٍّ، لتطبيق المنهجيّة التّقليديّة (حضوريًّا وعن بعد) المعروفة باسم "المُسارة"[٢] الموسيقيّة التّقليديّة (l'initiation musicale traditionnelle) في أطر مدرسيّة حديثة وعصريّة[٣]، وكيف أنّ لهذه المنهجيّة المثلّثة الأطوار: (١) طور الحفظ والتّشرّب – (٢) طوّر النسيان والتأويل – (٣) طور الإبداع والتّثمير؛ أن تستطيع المساعدة بحقّ وبفعاليّة في تحقيق العمليّة التّعليميّة، وذلك من خلال قدرتها على نقل المعرفة الموسيقيّة التّقليديّة في نوعيها الشّعبيّ والفنّيّ[٤] إلى المتعلّم، باعتمادها على المستوى اللّغويّ الموسيقيّ البليغ والفصيح الموجود ضمن "رصيد نموذجيّ"[٥] (répertoire modèle) يتمّ اختياره خصّيصًا لهذه الغاية.

---

[٢] المسارة هي تلك المنهجيّة التّعلّميّة التّقليديّة الثّلاثيّة الأطوار الخاصّة باكتساب التّقاليد الموسيقيّة الفنّيّة، والمبنيّة على العلاقة بين المرشد والمريد وهي ترتكز على تسليم السِّرّ الموسيقيّ من مُرشدٍ إلى مُريدٍ عبر تعاقب ثلاث مراحل إلزاميّة المسار هي: أوّلًا: التّخزين\التّلقين من خلال المشافهة وحفظ رصيد كبير نموذجيّ محدّد من المرشد للتّقليد الموسيقيّ المراد دراسته؛ ثمّ ثانيًا تأويل تلك النّصوص المحفوظة من خلال إماتة الحرف فيها، والبحث عن مضامينها ومعانيها، وصولًا إلى المرحلة الثّالثة والأخيرة هي مرحلة الإبداع والتّحفيز التّثمير في الأداء من خلال إعادة أداء النّماذج المحفوظة بشكل متجدّد ومتغيّر أو بناء نصوص لحنيّة جديدة على غرار تلك المحفوظة. راجع: أبو مراد، نداء، ٢٠١٦، عناصر السّيمياء المقاميّة، دار نشر الجامعة الانطونيّة\لبنان وغوتنير\باريس، ص ١٣٣ – ١٣٤ - ١٣٥. (Abou Mrad, Nidaa, 2016, Elements de sémiotique modale, Editions de l'Université (Antonine/Liban, et Editions Geuthner/Paris, p ;133-134-135

[٣] تحدّد هذه الورقة إطار دراستها في **"بيت الموسيقى"** في النجدة الشعبيّة اللّبنانيّة، وهو عبارة عن مدرسة موسيقيّة تمّ إنشاؤها في شمال لبنان من العام ٢٠٠٧، ويَؤمّها قرابة الألفيّ تلميذ(ة)، وتركن في مناهجها إلى تفعيل دراسة التّقاليد الموسيقيّة الشّعبيّة والفنيّة في أطر حديثة عصريّة استنادًا إلى منهجيّة المسارّة التّقليديّة.

[٤] مصطلح تقاليد موسيقيّة فنّيّة أو عالِمة، مفهوم يترادف مع "الكلاسيك"، وهو يطلق على تلك التّقاليد الموسيقيّة غير الشّعبيّة، الّتي نمت وتطوّرت في ظروف نهضويّة، فقدّمت نتاجًا موسيقيًّا ذي مستوى فصيح وبليغ على صعيد تراكيبه النّحويّة والصّرفيّة الموسيقيّة.

[٥] دورينغ، جان، ١٩٩٤، **شيء ما يعبر\يحدث: معنى التّقليد في الشّرق الموسيقيّ**، باريس، فارديه (During, Jean, **Quelque chose se passe : le sens de la tradition dans l'Orient musical**, Paris, Verdier.). كما يمكن مراجعة أبومراد، نداء، ٢٠٠٣، "الفقيه والمرنّم: الإصلاح من الدّاخل" (مقاربة بين محمّد عبده وعبده الحاموليّ)، **النّهضة العربيّة والموسيقى: خيار التّجديد المتأصّل**، عمّان، منشورات المجمع العربيّ للموسيقى. داريوش، صفوت، ١٩٨٨، من محاضرة في جامعة السّوربون (غ.م.)، باريس؛ نقلًا عن: دورينغ، جان، ٢٠١٠، موسيقات إيران، التّقليد في المجهر، باريس، غوتنير، ص: ٢٦٩.